بين الضفائر

مجموعة قصصية

حبيبة جمال

الكنزي
ALKANZY

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الوهاب

مدير النشر
مهند يحى

الكتاب: بين الضفائر
المؤلف: حبيبة جمال
تصنيف الكتاب: مجموعة قصصية
تصحيح لغوي: محمود المهدي
رسوم داخلية: مريم جمال
لوحة الغلاف: محمد جمال
تصميم الغلاف: أحمد صلاح المهدي
المقاس: 14 × 20
رقم الإيداع : ١٦٨٤٧ / ٢٠٢٢
الترقيم الدولي : ١ - ٥٥ - ٦٩٠١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

محفوظة جميع الحقوق

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

بين الضفائر

مجموعة قصصية

تأليف

حبيبة جمال

”

للأفكارِ أجنحةٌ تطير إلى أصحابها.

– ابن رشد

هجر الأفكار

المكتب هو المكتب وأنا حبيسه. القلم هو القلم، سئم مني وسئمت منه، يعرف كل أفكاري، ولا أعرفُ شيئًا عنه.

الأوراق هي الأوراق في مكانها، هي تعلم أنني كالعادة سأجرُّ ورقة منها، وكالعادة سألقي بها في القمامة بجوار أخواتها، وربما في يوم تفوز واحدة منهم وتذهب بجوار الفائزات في الدرج.

يجب أن أكتبَ قصةً جديدة، شعوري مُتعلِّقٌ بذلك، وكم يتعلق شعوري بأشياء لم يتم إنجازها!

تسقطُ الشمس في وسط البيوت لتغمرها بالدفء. أريد أن أقترب من أيِّ بيتٍ منها ليطلعني على أسراره، يكفيني سرٌّ واحدٌ حتى! ولكن بالطبع لن يبوحَ أيٌّ منهم بشيء.

يجب أن أعتمدَ على نفسي في إيجاد قصة، هل سأبحث في دفاتري القديمة؟ لقد كان لي الكثير من المغامرات.

هل سأكتب عن أول جريمة ارتكبتُها، كيف كانت، وكيف نجوت منها؟ هل هذا يستحق النشر؟!

أم سأكتب عن حكاياتي مع التي خذلتني وتزوجت من آخر، وتركتني وسط أوراقي ورحلت!

هل سأصبح سعيدًا إذا حبستُ قصتها في ورقة؟!

لا أعتقد؛ يجب أن تعيشَ حرَّةً ترفرف من جذعٍ لآخر.

لم يبقَ لدي سوى آخر حيلة.

سأتِّجهُ إلى شاشتي الكبيرة، نافذةٍ تفصلُ بيني وبين العالم، تنقل لي كلَّ شيءٍ وأنا في مكاني.

وفجأة!

تمرُّ فتاةٌ صغيرةٌ تحملُ همومَ الدُّنيا أوزارًا، ترتدي زيًّا مدرسيًّا، لا تكترثُ لأحد، تسيرُ في طريقها، لا تنظر حتى أمامها، تتلفتُ خلفها بين كلِّ نَفَسٍ وآخر، وكأنها ترى طيفَ شبح! ولكن سرعان ما تُكملُ طريقها.

أين أهلُ هذه الفتاة، لمَ يتركونها تعود بمفردها؟! لقد توقَّفَ قلبي عندما مرَّت بجانبها سيارة أو سيارتان، ولم تنتبه لصوتها!

هل مات أحد أقاربها، أخواتها، والدها، والدتها؟

أتذكَّر، فقد أصابتني مثلُ هذه الحالة عندما توفت أمي؛ كنت أعود من المدرسة مثلها.

هل سأكتبُ عنها وعني؟

ولمَ التسرُّع؟! فالعالم أمامي، والبحر يحبُّ الزيادة.

هذه المرة سألقي بنظري من نافذةٍ أخرى، نافذة تُرينا الحقائقَ عن كثب، إطلالتها، المناور الخلفيَّة، ربما ترضى عني البيوت وأعرف تفاصيلَ أكثر.

(المنور) أول شيءٍ كبرتُ عليهِ في بيتنا القديم، صرخات أمهات لأطفالهن، مختلطة برائحةِ طعام لا تُنسى، تتناغم الروائحُ وتدورُ في ثنايا المنور، لتخبرهم إحداهنَّ: الأكل جاهز!

ضحكاتُ زوجين مع صوت مِذياعٍ قديم، صوتٌ أجشٌّ يفقد تركيزي ليصيح: (المايه فوق)، جملةٌ لن يفهمها غيرهم. اشتقت لبيتيَ القديم؛ كان يحكي لي حكاياتهم دون أن أتوسَّلَ إليه، كان

يخبرني بمفردهِ بكلِّ الأسرار.

لنرجع لمنوري الجديد، استرقتُ النظر لأرى سيدة شعرها أشعث، ترتدي ملابسَ سوداء، هل مات أحدٌ لها هي أيضًا؟

تُجَمِّع حولها القطط، هل تلقي عليهم تعويذة؟ مهلًا، كلما تطعم واحدة، تأخذها معها!

اختنقت عندما رأيتها، هل سأصبح مثلها؟

لمَ لا؟ فأنتَ وحيدٌ مثلها! بيتكَ يشبه فوضتها، ملابسك اصطَبَغَت بالأسود من قلةِ الخروج، وتخلى الأقاربُ عنك واحدًا تِلوَ الآخر، فلمَ تستبعد ذلك!

الاختلاف الوحيد، أنَّكَ لنْ تربي القطط بسبب حساسيتك، حتى تربية شيء، فشلت فيه. تملكني الغضب والغيظ وتذكرتُ فشلي أكثر.

يجب أن أنزلَ من المنزل قبل أن يأتيَ أحدٌ مِن صديقَيّ، هما الآن ملجَئي الوحيد، وبرغمِ ذلك، فواحدٌ منهما مهمته الأساسية أن يذكِّرني بأني قد فشلت، ولم أحقق شيئًا، وأن هذه الكتابات ليست سوى هراء، وعندما تُنشر، سيضحك الناس على سذاجتي.

والآخر لن يكون مرتاحَ البالِ إلا إذا رآني وأنا محلِّقٌ في السماء، يجب أن أنزلَ قبل أن تسقط دمعة مني ويحضرا على إثرها فورًا.

وبينما أنا أهربُ والدموعُ تغمرُ عينيّ، ارتطمتُ بسيدة، فسقط منها كيس أدوية، ولكنها لم تكترث لسقوطه، كان يبدو عليها الإرهاق، استندتْ لأقربِ حائط، وأخذتْ تغمغم: ابنتي.. مشفى.. لن تستيقظ مرة أخرى.. أنا السبب.

حاولتُ أن أساعدها وَأُلملمَ الدواء المبعثر وأضعه في يدها، وهي في غفلةٍ من أمرها.

تركتها ونصف عقلي معها، يا ترى كم ليلةٍ لم تنم؟ كيف هو وضع ابنتها؟ هل ستموت؟ هل أنا من أقرر ذلك؟

هل أنا سأضع نهاية سعيدة لقصتها وأيقظ فتاتها؟!

من أنت؟ من أنت لتحيي وتميت؟ من أنت لتضعَ مصير الناس! هذا هو العالم الحقيقي، يملأه المرض، الموت، الجوع، قلة الحيلة، الحروب، وأنتَ فقط تترأسُ مكتبك، وبيدك تكتبُ النهايات، بعجرفتكَ تصدر الأحكام، وتظن أنك قد أدركت ما لم يدركه أحد!

وسط دوامة أفكاري، انتبهتُ إلى أصواتٍ تعلو وتصيح.

تجمهر الناسُ حول التاكسي، ذكرني عندما تسقط قطعة سكر، ويحتشد حولها النمل، وتريد أن تصرفَ النمل لترى ـ فقط ـ ما تجمعوا حوله، وعندما تُرضي فضولك الصغير، يتجمعون مرة أخرى، لا يهم.

كنتُ أريدُ أن أكملَ طريقي، وأتغلَّبَ على فضولي هذه المرة، ولكن شعرتُ بأنَّ روحًا تجذبني لمكان التاكسي، روحًا تغطت بنسمة هواء وتعطَّرت برائحةِ الجنة.

جذبتني ولم أقاوم، لِمَ أقاوم؟ فهذا ما أريده! ستساعدني الروح في الدخول وسط الزحام.

وكلما أدخل أكثر، أسمع: (لا إله الا الله) أتعمَّقُ أكثر (مات العجوز) وأكثر (ربما ليس لديه أقارب).

وعندما اقتربت، وجدت رجلًا عجوزًا أصلعَ مستلقيًا بجسده النحيف الذي هزمه المرض واليأس، عيناه تنظر للسماء.. ميت.

لِمَ يلاحقني الموت اليوم؟!

هل لأنه الحقيقة الوحيدة في حياتي؟ هو الأمر الوحيد الذي سأقوم

به ببراعة دون أن يوقفني أحد. أمسكتُ يده بشدة وصرخت: لا تتركني، أرجوك خذني معك!

حتى ظنَّ الجميع أني ولده أو أعرفه، وأخذوا يربتونَ على كتفي قائلين: شد حيلك يا ابني.

وكلما تعلو صرخاتي، أشعر بصوتٍ يهمس في أذني: مكانك ليس هنا، اذهب مع هذا العجوز.

ويزداد الصوت ويختفي الناس..

طيفٌ حولي يحثني (اكتب القصص، ربما تسعد أصحابها) سأكتب.. وأحبسهم في الورق، لأتحررَ أنا، وأستريح..

وهل سأستريح؟

انتهاء الصلاحية

الطرقات تغيرت، أقف في الشارع... أهذا هو شارع بيتي الذي كنت أسير فيه وأنا ممسكٌ بيدها... لم أعد أعرفه... هل أصابني ما يدعونه ألزهايمر؟ أم أن زوبعة التجديد غيرت معالم الشارع... إنه يوم استلام المعاش اللعين... يوم خلق ليذكرني أن صلاحيتي انتهت... الشمس تلتهم صلعتي، يجب أن أوقف (تاكسي) في الحال... نعم إنه شارع واحد... ولكن سأوقف أي سائق يأتي، كلهم بالنسبة لي نفس الشخص يلقبونني بـ (حج)، ماذا لو لم أحج من قبل.. هل بهذا يتوددون إليَّ.. أم سأدفع لهم أكثر، لا أعتقد... في كل مرة يبدأ بـ (حج) وتنتهي بـ (روح يا شيخ منك لله...).

سأحسن الظن بهذا السائق وأتمنى ألا يطلب مني الكثير ولا يملأ رأسي بكلام أنساه بعد قليل... أغلقت الباب وبصوته الأجش يقول (إلى أين يا حج؟) يجب أن أقول له طبعًا يا بني، فلقد وزع الأدوار، (آخر الشارع يا بني).

الطرقات تسير أمامي تجذب ما تبقى من نظري، نسيم هواء يخرجني من التاكسي لأتذكر ما كنت... أقصد ما كنا عليه... لم أسمح لها بالرحيل.. ولكن أنا من مهدت لها الطريق لترحل.. نفد صبرها، مسكينة لم تفهمني، سئمت مني..

ابتسامتها ضمتك لسنوات، بساطتها تحل كل أمورك.. عجرفتك جعلتها تهرب.

شعرها كان يغرد كلما طار في الهواء.. قيودك أسرتها.. عيناها بحر غرقت فيه لم تخرج منه قط.. نظراتك لها شيبتها... يدها كانت تشفي أي جراح، كان يكفي أن تضعها على صدرك لتزهر فيه الأشجار.. لقد سممتها بلمساتك وهمساتك... قدمها أنارت أي مكان دبت فيه لم ترَ معها ظلام... دفنت هي بسبب ظلامك... كلامها كان يروي ظمأك بعد أي عناء... قتلها كلامك...

لم أقتلها، كيف! لا حول لي ولا قوة، فقط لم يعلمني أحد كيف

أتعامل مع شيء نادر مثلها... كانت تصمت وأنا أصمت، أقتلها الصمت؟! أم الجفاء!

كنت أعتقد أنها ستغيب كالشمس وتظهر في اليوم التالي أكثر إشراقًا لكنها غطست في ظلام هذا الكون الواسع...

الطرقات تدور من حولي... تذكرني بأني سأعود إلى سريري البارد بلا شريك، تذكرني بالقبر الذي أعيش فيه قبل الأوان... تذكرني بشيبتي وقلة حليتي، فالطرقات بها حياة وأنا سأصعد إلى قبري بمفردي...

أدور حول الطرقات... كانت هناك أراها من وراء زجاج التاكسي يكسوها الأبيض، عادت شابة كأول مرة التقينا، روحها الحالمة أعادت لها الشباب وروحي الغليظة تركت لي العجز، خجلت من عجزي من صلعتي من عكازي وثيابي المترهلة... دقيقة، لماذا لا يراها الناس مثلما أراها، فنورها حجب نور الشمس... أراها ترقص بين عواميد الإنارة.. وأنا لا أقدر أن أمشي شارعًا.. أراها تتمايل في دلال وتمد يدها لي وتشير إليَّ بعينيها الواسعتين أن أوقف التاكسي وأشاركها الرقص، ألا ترى عكازي؟!... هل سامحتني ورضيت عني؟!... ظللت بين شعور أن أوقف السائق بعض

دقائق أو أمضي وأتجاهلها، هل سأطلب منه ان يقف؟

وينهرني قائلًا (أنا مش خدام عندك)، لا يهم لقد سئمت من هذا الجسد المريض المتهالك، أريد أن أصبح مثلها بالتأكيد ستضفي عليَّ من نورها... تحررت وانطلقت معها.

خرجت إليها وأجد نفسي أكثر حيوية لأرقص معها، أعادت لي شبابي ومنحتني فرصة أخرى..

فجأة بدون سبب تبكي وأبكي معها، بالتأكيد تبكي على حالي من دونها.. ثم تضحك وتتعالى ضحكتها في الفضاء البعيد بالتأكيد، تُرى كم تعذبت بدونها كما كانت تقول لي دومًا؟ فتعلو ضحكاتي معها لأنها دائمًا على حق...

اجتمعت روحانا وتركنا ما قد سلف.. صعدنا وصعدنا... بقايا نظري على جسدي.. أسنذهب للقمر كما كنا نحلم!

من بعيد رأيت السائق أوقف التاكسي وظل يصيح (يا حج يا حج نمت ولا إيه؟ وصلنا.. ده الحال لما يركب معايا مسن).

وبعدها بقليل أدرك أني قد تركته منذ وقت، وأخيرًا فهم الأحمق وأخذ ينوح (لا إله الا الله).

”

نحــن في الحيــاة لا ننســى ولا تلتئــم جروحنــا بالاستشــفاء أو تغيــير الجــو أو بالمفاجــأة الســارة حــين تقبــل، نحــن ننســى الجــرح بجــروح أخــرى طازجــة نصــاب بهــا وتســتحوذ عــلى اهتمامنــا.

– يوسف إدريس

بين الضفائر

انتهت كل أعذاري للغياب، يجب أن أذهب هذه المرة في الزاوية، كان يرقد الزي.. طالما كرهت لونه.. ولكن ليس لدي خيار يجب أن أرتديه، أزحت عنه الغبار أو هكذا خيل إليَّ.

ارتديه وقد ذكرني بما يشغل بالي؛ هل نحن من نصنع الفروق بيننا أم هي حقيقة كونية أُجبرنا عليها.

الملابس بكل أنواعها أكبر دليل على التفريق بين الناس والطبقات.. لقد خلقت لكي يضعك الناس في إطار دون أن يبذلوا مجهودًا..

خبطت قدمي اعتراضًا.. لكن لن يسمعني أحدًا ولن أغير الكون، ولو سمعني أحدًا لن يفهمني.. وسيلقي عليّ محاضرة (لا.. تفرقة..

لقد اختفت هذا الجملة نحن لا نفرق بين رجل وامرأة صغير ولا كبير.. أسود وأبيض..) ولا يكاد يلف رقبته حتى يعيب في آخر لأنه أقل منه.. وطبعًا هذه ليست بتفرقة!

كعادتي أخذت مصروفي الذي لم يكن سوى عوضًا عن ذلك الاختراع الذي أراه في حقائب أقراني.. يسمونه (الساندويتشات) ليس من فقرنا ولكن أمي فقدت شغف تجهيز حقيبتي منذ زمن بسبب غيابي المتكرر وأنا لا ألوم ولا أعترض..

تأخرت كالعادة فهذا ما ينقصني، طبعًا سأسمع ما لا يسر منذ رؤيتي للحارس وحتى المديرة.

صعدت إلى الفصل بعد أن انتهى طابور الصباح وبدأت الحصة الأولى، صعدت وصدري يملأه الفراشات، فبسبب تغيبي بالأمس يرفع عني القلم كما يقولون، لم أكتب (الواجب) وبنظرة طفلة بريئة سوف أقول (من أين سأعرف ما درستم بالأمس) وأحني رقبتي كغزال لطيف وأعود لمكاني.

سئمت من نظراتهم لي، تهامسهم في الطرقات من صغيرهم لكبيرهم يعتقدون أن الناس جميعًا خرجوا من رحم واحد، لا بل أكثر يعتقدون أنه لا بد أننا دخلنا في مطبعة كبيرة وخرجنا منها

نسخة واحدة. أتعجب من المعلمة التي حظيت بقدر لا بأس به من التعليم والثقافة تتعامل معي وكأني (حالة خاصة). معلمتي العزيزة أود أن أخبرك بالحقيقة؛ نحن لسنا نفس الشخص!

وبرغم كل هذا الهراء لم أكن مختلفة عنهم جسديًّا ولا صحيًّا، حالتي الاجتماعية تغيرت قليلًا.. بالعكس ربما كنت أجمل بكثير من أقراني أولئك.. هذا ليس غرورًا ولكن أحب أن أذكر الحقائق.. ألا يتذكرون عندما كانوا ينبهرون بتسريحة شعري المغزولة على يد فنان بارع وعندما غاب عن الدنيا لم يرَ شعري جمالًا..

ألا يتذكرون ثيابي المكوية المعطرة، كان هو يهتم بهذه الأمور وبعد رحيله أصبحت ملابسي ملجأً للعنكبوت.. بالمناسبة كان هناك فستان يحب أن أرتديه اختفى مع غيابه.. هل أخذه معه أم رحل حزنًا عليه؟

ألا يذكرون عندما كان يوصلني لأكون أول الحاضرين لأفتح أنا لهم باب الفصل.. الآن أصعد آخرهم..

من سوء حظي ـ الملتصق بي ـ اليوم اختبار شهري..

كتبت المعلمة الأسئلة وما لبثت أن انتهت حتى جاءت لتقف فوق رأسي..

كانت تحوم حول كتفي كما تحوم الحية حول فريستها، أنفاسي أخذت تتسارع.. فأنا أرتبك من وجود أجسام غريبة حولي.. من أغلق الشباك؟ مددت بعيني إليه فإذا هو مفتوح.. لم أتنفس.. اختل توازن جسدي فجأة؛ أشعر ببرد القطب الشمالي تارة، وتارة أشعر أن نارًا تلتهمني.. اقتربت من أذني واقترب معها رائحة عطرها التي بددت ما تبقى من هواء، أصدرت فحيحها المخلوط بشفقة مغالية (لا عليك، أنا أتفهم ظروفك، من الممكن ألا تخضعي لهذا الاختبار) وتركت لمسة يدها على كتفي في حنو مبالغ فيه.. من غيظي أخرجت ورقة وأخبرتها بأني سأحاول.. لكيلا أقع فريسة لها..

نظرت إليَّ بنظرة شفقة أكرها وأخذت رائحتها ورحلت... وبينما آخذ أول نفس لي، وأتجه برأسي إلى جهة الشباك، إذ ينظرن إليَّ يهمزن ويلمزن، أسمع نعيقهن من بعيد... تقول إحداهن (بعد وفاة والدها، تجمعت حولها كل المعلمات، لم تجلب حتى دفترًا، لم تحل سؤالًا حتى).

وأخرى تتباهى بتفوقها فقد كانت بالأمس غريمًا لي، تربت على كتفي قائلة (حظًّا وفيرًا في الامتحان القادم). صار الدم يغلي في

عروقي، لم تكن هذه الكلمات إهانة بالنسبة لأي أحد مار، سيعتقد أنها تتمني لي الخير، ولكن في قاموسنا الخاص هذه الكلمات تعبر عن فشلي وقلة حيلتي... انتبهت فإذا ببقايا القلم في يدي بعد أن انكسر جزء منه.. القلم الذي أعطاني إياه في أول يوم هذه السنة ملفوف بشريط وردي أتذكر ما قاله لي، كان يعتقد أني لم أسمعه ولم أهتم بما قاله، ولكن كل كلامه محفور بداخلي (هذا القلم سيحل كل الامتحانات بمفرده دون أن تبذلي أي مجهود، فلقد ألقيت عليه تعويذة سحرية)، لقد خسرت قلمي السحري كما خسرته...

كانت دموعي متجمدة في عينيّ حتى فقدان القلم لم يجعلها تذوب، نظرت إليهم وهن منهمكات في حل الأسئلة، الهدوء يعم المكان لو سقطت إبرة لسمع جلجلتها، أظن لو أنهن استرقن السمع وسمعن أنيني لفقدن هذا التركيز.

سلمت الورقة بعد أن مر الجميع من أمامي بورقهم المكتظ بالإجابات وأنا من كنت أول من يسلم الورق وأعلم النتيجة قبل أن تصل للمعلمة.

درس يليه درس وحصة تلو الأخرى لم أحصل منها غير نظرات الشفقة من المعلمات وأحيانًا كانت تمر مشرفة الدور ترمقني بحنان

مصطنع. لحسن الحظ لم أخرج أي شيء من الحقيبة، لمحت موضع (الساندويتشات)، كان فارغًا كأن دوامة تريد أن تسحبني إليها وتذكرني بمن كان يرتب لي حقيبتي كل يوم، وقبل أن تجذبني الدوامة... استفقت ورأيتني أخرج من باب الفصل مسرعة قبل أن يرمقني أحدهم.

أصبح باب المدرسة أكبر، أخرج منه وحيدة لا أحد يستقبل خروجي منه مثل العائدين من السفر، يجب أن أغض بصري عن هذه التي تحضن والدها بعد يوم طويل وذاك الذي يعطي فتاته قبلة الحياة بعد الموت.

رغم أننا في الظهيرة ولكن عينيّ ترى عتمة عكست ما بداخلي، أصبحت حمارًا يحفظ طريق العودة عن ظهر قلب. لذلك كانت تتركني أعود بمفردي.

الطريق أصبح أطول برغم معرفتي به، ولكن أجده غابة مثل الغابة التي ضاعت فيها (سنو وايت) تُرى هل سأجد بنهايته كوخًا يضمني أم ساحرة تسمني؟ أشعر برياح الضياع تنتزعني من مكاني، أتمنى لو نظرت خلفي ورأيت أبي بابتسامته التي تنير تلك العتمة... أتمنى حتى لو رأيت شبحه... مضيت في طريقي ووصلت المنزل،

ترى هل سيصبح لي ذلك الكوخ الدافئ!! لا أظن.. العودة إلى المنزل كانت أصعب بكثير من الذهاب للمدرسة، الجوع يلتهمني.

أعرف أنها ستكون نائمة حتى الآن ولن تعد لي أي طعام، لم تعد تكترث لي...

سأفتح الباب لأجد هدوءً مميتًا... صمتًا مخيفًا لم أتعلم بعد كيف أتعامل معه... ويستقبلني في الصالون الوحشة والكآبة والغربة، فهم أصحاب البيت الجدد ونحن مجرد ضيوف لديهم.

دخلت بخفة تليق بهم (وأيضا لكيلا أزعج السيدة غربة!).

بمجرد دخولي اعتقدت أنهم رحلوا وتركوا لنا بيتنا...

الشمس أشرقت من جديد على منزلنا (لقد نظفت أمي المنزل)، أشم رائحة الغداء تعطر المكان... الطعام الذي كنت أتوسل إليها أن تعده لي...

سمعت صوت أمي بالداخل تتحدث إلى أحدهم، كانت الدموع تحشرج صوتها وهي تقول (أعلم أنا مقصرة معها هذه الفترة، لم أتغافل يومًا عنها ولكني أتركها على راحتها، ولكن ما دام ذلك يؤثر على مستواها الدراسي سأفعل ما بوسعي). لم يهمني مع من

تتحدث، لم يمر كلامها عبر الهاتف، بل مر بين شراييني ليصل إلى قلبي مباشرة.

مطر مالح يهطل ليروي وجنتي ويسير في طريقه ليغرق ملابسي وتغمر ما تبقى من جسدي... أهذه دموع! أذابت جليد عينيّ!!

كيس شيبسي

فتحت الباب وإذا هم قطيع يدخلوا المنزل، بدأ قلبي يدق بسرعة، خفت من هذه اللحظة منذ الصباح، وأخذت أعض على شفتي وأفرك يدي حتى ذابت، لو عليَّ لما كانت أسمح لهم بالدخول، ولكن ما باليد حيلة، أخاف أن يروا حالتي ويكتشفوا ضعفي، ولكن أعتقد أني برعت في إخفاء ذلك مرة أخرى.

كنت على وشك أن ألقي تعليماتي، ولكن صوتًا حادًّا من العالم الآخر أوقفني، صوتًا أعرفه ولكنه يتوه وسط زحام أفكاري، سكت هذه المرة ولكن داخلي يصرخ.

دخلوا الصالون... بدأ المفترسون بالجلوس على الأريكة، تُرى أين جلسوا قبل أن يجلسوا هنا؟ كانت حركتهم البسيطة بمثابة إعصار يهز كياني.. متى سأخرج من هذا الإعصار، متى سأحظى بنسمة هواء تخفف عني.. نسمة هواء! سأتجرأ وأفعل ما لم أفعله من قبل سأفتح الشباك.. كيف؟ لا أطيق كل هذه الأنفاس في مكان واحد! هرعت إلى الشباك.. فتحته على مصراعيه، التقط أول نفس منذ الصباح.. لا أبالغ ولكنه جعلني أفضل، وعاهدت نفسي أن أنهي هذا اليوم بشكل جيد وليس ككل مرة.. يجب أن يرحلوا ويعتقدوا أني قد أحسنت استقبالهم.. وغدوت أفكر هل يا ترى إذا صرفت عيني عن تصرفاتهم هل سأشعر بأني أحسن حالًا؟

وبالفعل؛

صرفت عيني في اتجاه آخر، وإذا بطفل القطيع يمسك بـ (كيس شيبسي)، يأكله بنهم وقطع صغيرة تمطر على الأرض في ليلة شتاء باردة.. هو يعذبني بدم بارد.. هل سأضعه في غرفة العزل، أم سأتحمل؟ سأتركه هذه المرة ولن أفسد كل ثباتي بسببه.

كانت عيناي تتسابقان لتريا ماذا يفعل هذا وماذا يفعل ذاك.. لم يخرجني من هذه الدوامة إلا ذلك الصوت الذي اعتدت على

سماعه.. صوت كان من اختصاصه أن يرشدني، صوت يلوم ويوجه.. صوت يعيش معي.. صوت أحيانًا أخلط بينه وبين حديث نفسي.. صوت ينادي عليَّ من الخارج يتحول الصوت إلى لمسات وغمزات وأنا لا أراها من قوة ضباب الدوامة.. صوت كل كلمة منه كانت عبارة عن دستور..

صوت انهزم.. هزمته دوامتي ولم يجد سوى أن يقرب نفسه مني ليقترب أكثر وأشعر بأنفاسه تخمد الدوامة، أشعر بهمساته ترن في أذني (ألن تقدمي شيئًا للضيوف؟) نعم هذا صوت زوجي.. وهذا بالطبع ما سيقوله.. كان يجب أن أجيب مسرعة : (نعم كل شيء جاهز) لأنجو من هذا اليوم..

وقررت أن أتغاضى عن بقايا الشيبسى والفوضى العارمة التي حدثت.. سأنظفها فيما بعد..

أدخل المطبخ على الأشواك تاركة جزءً من عيني يراقبهم..

سرعان ما طمأنت نفسي وسحبت عيني وأدركت أنه لا يهم، ما حدث قد حدث.

وبدأت عاصفة أخرى من الأفكار تحوم؛

(هل سينزلق العصير من الصغير؟ نعم بالتأكيد أفكر بأن يكتفي بالكيس الذي في يده).

كان وجودي في المطبخ خيرًا لي فهنا أنا في أمان أكثر..

أصب العصير مرتجفة ناظرة للساعة، متى سيحل موعد رحيلهم؟

لماذا أود رحيلهم وأنا من تحب لقاءهم؟ وأنا من أصررت على تحديد موعد لهم؟

لماذا تحولوا لأعدائي الآن؟

لماذا أنفر من قدومهم؟

طريق العودة لهم كان أشد ظلامًا وشوكًا.

أطمئن نفسي أنني قد أحرزت تقدما كبيرًا وهذا يكفي.

أراقبهم في صمت، وتأتي همسات من هنا لا أسمعها جيدًا تختلط مع ضجيج الكؤوس التي لا أغض بصري عنها.

وتأتي تارة (كيف حال..) وتحلق أخرى (لقد أتعبتِ نفسك..).

ولا أميز من المتحدث بينهما.

أخذ الصغير يتجول في كل أنحاء المنزل بهذا الشيبسي، لو كان

اصطيادك شيئًا مسموحًا لكنت حتمًا من الفاعلين ولن يهمني أحدًا.. هل أنت مدفوع عليَّ لأخرج عن ثباتي.. لو تعلم ماذا سأفعل بك إن لم تنتهِ. بلعت ريقي وشددت على شفتيّ وربطت على يده وشددته إلى غرفة العزل، الغرفة التي أخفي فيها أي شيء لا أريده، الغرفة التي فقدت الأمل فيها، فقررت إغلاقها لكي تحتفظ بصناديقها وظلمتها..

قُلت وألم يجري في صدري وبآخر أنفاسي في الحياة (ما رأيك أن تجلس في هذا المكان إلى أن تُنهي هذا الشيء هنا ولنعتبر هذه لعبة الاختباء عنهم). حرك رأسه موافقًا فلم يكن يهمه سوى أن يلتهم ما تبقى منه حتى آخر قطمة..

خرجت إليهم بابتسامة لم تخلُ من رفة عين وشد على الشفاه وكأن شيئًا لم يحدث، حاولت أن أتغاضى عن تلويح الكؤوس في الهواء وانزلقت نقطة على الطاولة..

حبست أنفاسي ورجعت خطوة للوراء وجن عقلي، أخذ يتناثر في كل مكان ينوح ويستغيث، وإذا بأدوات التنظيف تناديني ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أمسكها وأضمها إليَّ كأم فقدت ابنها لأعوام، وأضمها أكثر إلى صدري لا أرى أحدًا ولا أسمع منهم صوتًا

وعيناي لا تشيران إلا إلى بقعة الطاولة.

اقتربت منها وأزحت الكأس بعيدًا، ولمحت في إزاحتي له أنه كان بحوزة يد ولكن لم أكترث.. فقط عندما رفعت يدي لأمسح الطاولة سمعت صوتًا:

(تأخرنا اسمحوا لنا بالمغادرة).

تنفست الصعداء وعاد الهواء نقيًّا.. تركت ما بيدي وجلبت لهم صغيرهم الذي كان فرحًا بخلاصه.

وأوصلتهم إلى الباب ودعتهم ويجب أن أقول (يجب أن تكرروا الزيارة).

بمجرد أن خرجوا وأقفلت الباب، أسندت رأسي عليه، يا لها من معركة..

نظرت أتفقد الصالون بعد رحيلهم.. أين آثار أنفاسهم؟ اختفت.

أين بقعة العصير التي كنت أراها بركة؟ هي نقطة.

أين بقايا الشيبسي؟ لقد كانت حبات رمل.. وتناثرت.

مثلث برمودا

عندما تقود السيارة وينزلق منك شيء داخل ذلك المكان الضيق في صالون السيارة أو كما أسميه (مثلث برمودا).

عندما تشعر أنه من الممكن أن يختفي للأبد ينتابك نوبة غضب غير مبررة.

تطمئن نفسك وتقول إنه سيأتي اليوم وتنظف السيارة وتخرج ذلك الشيء الثمين أو غير الثمين على حد سواء.

الفقدان نفسه يشعرك بالغضب، نعم الغضب وليس الحزن، الغضب من نفسك من المكان ومن الزمان.

انزلاق هذا الخاتم من يدي واختفاؤه في خبايا السيارة جعلني أتذكر يوم أن أدركت أني فقدتها ولن أراها مرة أخرى.

من شدة جفاف وداعها لم أذرف دمعة.

كلماتها الأخيرة لي بأن أعتني بنفسي جيدًا وأن رحيلها هو الأنسب للجميع (أو كما قالت إن سفرها يمكن أن يؤمن مستقبلنا).

اختارت أن تمارس دور الأب وأهملت دور الأم، سلمت أمانتها لجدتي ورحلت مع زوجها، ولم يكن بحسبانها أن الأعمار ليست بأيدينا وبعد سنوات من الفقدان سأستلم اليوم جسدها البارد المغطى بكفن الفراق... أوقفت السيارة لأمسح ما تبقى من دموعي، فعائلتي لا تتحمل اليوم إلا خبر وفاة واحد، ونظرت وإذا به الخاتم يلمع في الزاوية، ارتديته وأكملت طريقي...

”

ربما لم أكن الفاعل، تشب النيران بداخلي
كلما تذكرت الذنوب
التي ارتكبتها، لم أنسَ أيَّ شيء أحزنني..
وكأن ذكرياتي خلقت للحزن فقط.

– عمر سيف الدين[1]

---

١ من رواد القصة القصيرة في الأدب التركي..

جريمتي الأولى

لا أعلم كم سنة وأنا على هذا الحال، اختلطت عليَّ السنوات.. من فعل ذلك الجرم؟ أنا أم شخص آخر؟.. ربما تغيرت ولكن الشر بداخلي لم بتغير...

لماذا ارتكبت هذه الجريمة؟ هل سيُقذف بي في النار حتى تُشوى عظامي أم سأُحبس في جحيم الدنيا إلى أبد الآبدين؟ هل جريمتي ستمحي كل حسناتي أم سيتبقى لي القليل؟

هل سيُكتب على وجهي؟

دائمًا ما أسمعهم يرددون (من يفعل سوءً يظهر على وجهه).

هل ستفضح عيني الأمر؟ فالعيون تبوح بالأسرار، تفضح شأنها شأن جارتنا التي لا تكتم خبرًا.

لا.. عيني تكتم أمري.. يدي ستفضح الأمر بالتأكيد... نعم إن يدي تتصبب عرقًا..

يدي اليسرى تستغيث.. تنظر لي وتستغيث.. أعلم أنك ستبوحين بكل ما عندك.. يدي اليسرى لقد ارتبط اسمك بالشيطان.. بالنار بالعذاب... أنتِ من ستلقين بي في الجحيم أعلم ذلك..

أنتِ من ارتكبت الجريمة الكاملة.. ربما أنتِ من وسوستِ لعقلي.. لا أستبعد ذلك...

لن أخاف وسأضعك في جيبي.. ولن يرى أحد شيئًا.. وأبرز يدي اليمنى.. اليد الطاهرة التي لم ترتكب إثمًا قط..

نظرت إليَّ يدي اليسرى وخرجت عن صمتها لتذكرني بالجرم الذي فعلته وتصرخ هل الذنب عليَّ أنا فقط؟ ألا تذكر.. هل تذكر حين استيقظت قبل أي فرد في المنزل وقبل أن تذهب إلى المدرسة.. نهرتها وقُلت.. لم يكفِ مصروفي.. ألا تتذكرين أنتِ كم كنت أنظر بحسرة كل يوم إلى من حولي لديهم مصروف أكثر مني؟ لست أقل منهم في شيء.. هل بهذه الطريقة يعلمني أهلي الزهد؟

في كل يوم أنظر لهم بحسرة بعد الدوام وكل واحد منهم يقف يرطب على قلبه بالمثلجات التي لا أحظى بها سوى أيام الامتحانات

عندما أدخر من مصروفي أكثر... لمَ أعيش في هذا البؤس؟ لن يحدث شيء إذا أخذت بجانب مصروفي خمسة جنيهات خلسة.. نعم أمي تثق بي تترك حقيبتها مفتوحة تعلم أني لن آخذ غير ذلك الجنيه أو جنيهين ليس إلا... يدي اليسرى التي تتصبب عرقًا.. خفق قلبي بشدة.. كتمت أنفاسي المتعالية لكيلا يستيقظ أحد... وجسدي يذكرني بالجحيم الذي سأقع فيه وكم ستلومني أمي على إهانة ثقتها التي منحتها لي هباءً... وأن من يسرق تقطع يده ويعلم الجميع أنه سارق... ولكن الأدرينالين كان أقوى، كانت يدي تريديني أن أقوم بهذه المغامرة، لمَ لا! لم أفعل سوءً من قبل فأنا الطفل المطيع الهادئ ليس لديه شيء يحكيه في اجتماعات «شلة المدرسة» ليس لديه مغامرات... هل ستجد يدي خمسة أم سترجع بكومة جنيهات متناثرة.. فالحقيبة شمس تنتفض لتخرج يدي.. أو كأن الحقيبة تقصد عرقلتي لكي تستيقظ أمي وتراني.. كثرة التساؤلات هدأت عندما أيقنت حينها أنا الثقة، ودوى كل شيء بداخلي؛ ربما هذا حقك في الأصل، من قال لك إنك تسرق، هذا مال أبيك.. وهو لن يعز عليك شيئًا..

وأخذت النار تشتعل من قبلي وتسري في جميع جسدي وبنفس واحد (لا هذا ليس حقك.. لو كان حقك لفعلته في العلن، أنت

لا تجرؤ على أن تفعل ذلك أمام أحد).

والحقيبة تعض على يدي أكثر وتتوه داخلها مرة تعلق يدي سلسلة المفاتيح وتارة يجذبها بعض الأوراق المتناثرة وتصدر صوتًا..

رأيت طيفًا ينم عن حركة امي... هل استيقظت؟

يدي اليسرى تحترق... يجب أن أخرجها فورًا... ولكن لن أخرجها خاوية..

أمرت عيني أن تتنازل وتشارك يدي في هذه الجريمة وأصررت عليها أن تنظر وترى لتتخلص من تلك الواقعة لو كنت في صحراء لكانت ألطف جوًّا من هنا...

عيني أشارت ليدي وفورًا التقطت الخمس جنيهات وهربت من الحقيبة... وزرعت الأموال في جيبي لتطرح منه النيران.

قدمي التصقت بالأرض.. ترتجف تخاف أن تخطو خطوة..

يجب أن أرحل.. لكن ما لبثت أن استيقظت أمي كأنها تكمل حلمًا ما وبصوت ممزوجًا بآثار النوم قالت (لماذا تقف هنا؟) قالتها بكل براءة.

ولكن رجلي ارتجفت أكثر ويدي ارتعشت وكأنها للحظة عادت

لرشدها.. ولكن لساني أجاب (أنا هنا أنتظرك لآخذ المصروف لم أرد أن أزعجك). قالت والنوم يتملكها (خذ مثل كل يوم وارحل قبل أن تتأخر).

أدخلت يدي اليمنى هذه المرة لكيلا تتعرف عليها الحقيبة وتفضح أمري..

ركضت من المنزل.. كنت مجرمًا يهرب قبل أن تكتشفه الشرطة.

ألوم نفسي وألوم.. عاهدت نفسي ألا أفعل هذا مرة أخرى.

لا أتذكر فيما أنفقت الأموال فما يأتي سهلًا يذهب سهلًا.

ولكن ما كان يدور في ذهني أن أصرفها قبل أن يعرف أحد.

وها أنا الآن بعد هذه الأعوام؛

تحكني يدي كلما تذكرت...

وكلما اجتمعت مع أمي وحقيبتها التي ما زالت مستقرة على المنضدة كما هي، ربما ما زالت تتذكر وتشهد على ما مضى.

كنت أتحين الفرصة عندما

كعادتها كانت

أدخل يدي اليمنى في جيبي وأخرج منها خمس جنيهات.. ويتدفق الأدرينالين في جسدي وأخاف أن يراني أحد ألقيها فورًا في الحقيبة وأغمض عيني مطمئنًا لعلني كفرت عن جريمتي.

أظنها مجنونة

إنه اليوم الذي أكره، يجب أن أمر عليها قبل عودتي إلى المنزل.

أشعر أنني سأدخل إلى حاوية قمامة.

كل مرة أقنع نفسي أنه «مشوار» وسينقضي، وألا أعلق على أحد ولا أنتقده فالأيام تدور.

اقتربت من الباب، الرائحة تقترب، لا تخف سأفعلها رغمًا عني وطرقت الباب، أشعر أني طفل صغير يريد أن يرن الجرس ويجري (بالمناسبة كم كانت لعبة لطيفة أقوم بها في الصغر ليتها دامت إلى الآن لتنقذني مما أنا فيه).

لكن للأسف أنا الآن رجل كبير يجب أن أتوقف عن إزعاج الأشخاص وأتعامل بنضج واحترام وأتفهم حالتهم.

فتحت الباب، كان على طرف لساني أن أقول لها «البقاء لله» غير أني أدرك أنه لم يكن عزاءً بل هي طبيعتها! تلك الملابس السوداء التي هي زيها الرسمي.

هيئتها توحي لي في كل مرة أني قد جئت في وقت غير مناسب،

بقايا الطعام على ملابسها، يدها التي نسيت ملمس الصابون، شعرها الأبيض الذي أصابه ماس كهربائي.

وبينما أنا غارق في هيئتها بدأت صغيراتها يقفن على عتبة الباب واحدة تلو الأخرى، نظرت إليهن ورجعت خطوة إلى الوراء فقالت لي (لا تخف، لن يفعلوا لك شيئًا) فأسرعت في الرد قائلًا (لا أخاف لكن لدي حساسية منهم).

نظرت إليهم بحنان وقالت لي (أستغرب أحيانًا من وجود حساسية كهذه، فهم في غاية اللطافة، هل من الممكن أن توجد حساسية من الأطفال؟! إنهم أطفالي.. لا يعقل. هل تعلم أنهم يقولون لي سلمت يداكِ لم نأكل أكلًا بهذه اللذة قط، وعندما أقرأ الجريدة على الكرسي يلتفون حولي ليقرأوا معي وتتصارع كل واحدة منهم لتحظى بورقة تلعب بها. وفي المساء ننام كلنا على سرير واحد وأسمعهم وهم يرددون بنفس واحد هكذا أفضل لنا جميعًا فليس لنا غير بعضنا).

تزايدت دقات قلبي وتصبب العرق مني، كنت أعلم أنها ستقول هذا الكلام فهي لم تفوت مرة لم تُذَكِّرني به.. يجب أن أدخل في الموضوع قبل أن تبدأ صغيرة من صغيراتها في المواء وتتحدث معهم أمامي.

هيا سأفعلها وأنتهي من هذه الزيارة.

(احم، لقد جئت اليوم لأخذ الإيجار).

حقًّا قد استطعت أخيرًا يا رجل.

فنادت واحدة منهم (يا سمسمة ممكن أن تجلبي لي النقود من الحقيبة).

ليس لهذه الدرجة!

(معذرة فسمسمة أحيانًا لا تسمعني جيدًا سأجلب أنا النقود بنفسي). ودخلت.

لأرى المنزل أفضل.. رغم قامتها القصيرة إلا أنها كانت تحجب الرؤية..

صحون فاخرة على الأرض مثل صحون أمي التي تحرم علينا الأكل فيها وتضعها في دولابها المقدس (النيش)، كيف تضع فيها أكلهم

بهذا الشكل على الأرض وعلى الأريكة، عادت مسرعة فلم أستطع أن أمسك نفسي وقلت (خطر!).

فقالت (ما الخطر؟).

فقلت بتعجب (أن يأكلوا في هذه الصحون، فلهم صحون مخصصة لو كسروا صحن من هذا يتأذون ولا يدركون ثمنه).

احمر وجهها غضبًا وصرخت (اسكت! لا تقل هذا! هم يدركون كل شيء). حاولت أن أقترب لآخذ النقود وأرحل فإذا هي تضعها خلف ظهرها وتكمل حديثها (هذه الصحون وغيرها جلبتها أمي لي ووضعتها تحت السرير، حتى يأتي اليوم المناسب كما كانت تردد أمي يوم العرس، لكن مر الزمن ولم يأتِ، ولكن حين قابلتهم في الشارع الخلفي وجدت أن هذا هو اليوم المناسب ولم أجد أعز منهم ليأكلوا فيها فهؤلاء أبنائي). تسللت واحدة منهم والتفت حول قدمي حينها ابتسمت العجوز (بما أن بوسي قد أحبتك خذ الإيجار، وسأدعو لك أن تشفى من هذه الحساسية لتجلس معنا في الداخل المرة القادمة).

ثم أخيرًا عفت عني وهي تقول (كل شهر وأنت طيب).

أجبت مسرعًا (ولكِ العمر المديد). كادت أن تسقط منها دمعة

ولكن أخفتها بضحكات.. أخافتني قليلًا.. أغلقت الباب قبل أن تلمس دمعتها الأرض..

وهبطت على السلم وأنا أفكر فيما قُلته، هل أوجعها؟ لا يهم!

يكفي أني قد أخذت الإيجار ونجوت من هذه الرائحة..

الكارما (١)

يقال دائمًا يجب أن تنظر في عين الشخص الذي أمامك لِتُظْهِر له ثقتك وقوتك وصدقك. لم أمارس معها ذلك، تعلمت أن أخبئ عيني عنها وعن الجميع.

أتذكر عندما كنت أذهب إليها بأحلامي وكلماتي وفرحتي إلى المطبخ، المكان الوحيد الذي كان يجمعني بها لأستطيع أن أتحدث معها منفردة. صوت صرصور الحقل الذي يصدر مع آخر حرف أتلفظ به.

استدارة ظهرها وعينها التي لا تفارق الموقد، ذلك الموقد الذي تكترث إليه ولا تكترث لسواه.

أتعجب ماذا أقول أكثر للفت انتباهها ولأجعلها تنظر إليَّ. هل هي شبح أتخيله؟ أم هي حلم أحلمه؟ كيف؟! فكل من معي يستطيع أن يراها ويتحدث معها. ربما كانت كلماتي فارغة بالنسبة لها.

وبعد أن أنهي كلامي الذي لم ينل أي رد، ويهز جسدي رياح الصمت والحرمان، آخذ آلامي وأعود إلى غرفتي.

وبينما أنا الآن أمسك بهاتفي بعد هذه الأعوام تمر من أمامي وقد اشتعل رأسها شيبًا وانحنى ظهرها، تنظر إليَّ لتتكلم إليَّ وتلفت انتباهي، هل سأنظر إليها وأجعل عيني تحضن عينها أم سأفعل مثلها؟

الكارما (٢)

الحواجز بيننا تعيق الرؤية.

تمنعني الحوائط والغرف أن أضمها وأجلس معها، لا أعلم كم شخص بيننا يمنعني من ذلك!

تعيقك الغرف الآن، ألا تتذكرين، كان لا يفصلكما سوى جدار، وأنها بالغرفة التي تجاورك تسكن وكنت ترفضين قربها!

ألا تتذكرين كم كانت تهرول إليك آتية وكنت تزيحين وجهك زاعمة الضجر والرتابة... أو لو كنتِ مددت يدك للعب معها لطار الملل والرتابة تلعب معها الآن الإبر وتحدثها المحاليل.

وعندما كنتِ تزيحين الأعباء التي حملتِها عبثًا وتذهبين إليها شاردة.

ما تبقى من ذهنك يكفي لأن تحركي لعبة لترميها في فضائك البعيد وتنظر إليك متوسلة بأن تحدثيها بنفس حماسها وكنت ترفضين.. حتى عندما كانت تطعم نفسها ويتساقط الفتات منها كأي طفل كانت تتعالى صرخاتك وأنت تقولين (أنتِ سبب كل شيء!) جملة فضفاضة لم تكتمل. نعم هي سبب كل شيء جيد حدث لي..

ولكن هي بالتأكيد فهمتها، أنتِ سبب كل شيء سيئ. أوه الآن أدرك أنها فهمتها العكس..

الآن تفرق بيننا الغرف والملابس البيضاء... لطالما كرهت اللون الأبيض، لمَ يتخذه الناس لونًا للفرح والبهجة؟ الكفن أبيض ويعزل بيننا وبين من نحب! الجدران البيضاء تهتك جسدي... تذكرني بكم كانت أمي تراهن بأني سأكون أمًّا فاشلة وكانت لا تترك مناسبة حتى تخبرني فيها أني ابنة عاقة وأن الله سيبتليني بمن هم أمثالي..

نعم فشلت عندما سمحت للمرض أن يسكن جسد ابنتي،

لم أُبتَلى في خروجها عن سيطرتي ولا في صريخها العالي، ابتلائي أشد من ذلك... لو تعلم أمي أني أتمنى أن أسمع غضبها وأرى عصبيتها أتمنى لو تعارضني الرأي وتخرج عن سيطرتي... لم تدرك أمي أن

العقوق الحقيقي هو أن تنام بعيدًا عني على سرير في غرفة تفصل بيننا الحوائط...

صوت ما بداخلي يحدثني ليوقف تلك الحسرة في صدري وذلك الألم في عروقي، ألم تكوني تلك الفتاة التي لم ترد قط أن تؤسس أسرة؟ عندما كان يذكر أحد كلمة اطفال كنتِ تنفرين وتقولين (أعوذ بالله)، كم حاولتِ منعها بكل السبل ولكنها أتت رغم أنفك وستذهب رغم أنفك...

***

ميتة أنا أم على قيد الحياة؟ لا أشعر بحواسي، يدي مكبلة وجسدي مقيد، لم أذق طعم الأكل منذ أيام ربما، أو شهور لم أعد أفرق... طعم مر في حلقي.. دواء كنت أجري وأرفض أن آخذه.. دواء كان يقربني منها، كان يجعلني أمسك شعرها وأشم رائحتها، كنت أُقَرِّب نفسي أكثر لتغطي رائحتها على الدواء، لا آخذه لكي أشفى ولكن لأبقى معها أكثر..

أشتاق لذهابي إلى سريرها كل صباح، أقفز عليها وكأني في مدينة القطن وأمسك شعرها.. بالطبع كانت تصرخ غضبًا وتصيح

(اخرجي فورًا لم أُكمل نومي بعد!).

كنت أجلب الألعاب وأتخيل أنها تلعب معي.. كانت أحيانًا ترمقني بنظرة «أنتِ سبب كل شيء»، وأنا أُكمل «أنا سبب كل شيء سيئ يحدث لها».. لم أستطع أن أكون طفلة طبيعية. بسببي ذابت قدمها من الركض في المشافي والعيادات، بسببي لم تذق أمي النوم كما تريد..

الآن أنا مكبلة على سرير أبيض لونه يرعبني يبعدني عنها، يذكرني دائمًا بأنه الفاصل بيننا.

***

أغلقت باب السيارة على عجلة من أمري.. لماذا تركتهما بمفردهما؟ هي من أرادت أن أبعد عنهما! تذكرتها حين كانت صغيرة عندما كانت تخشى الذهاب إلى المشفى وهي الآن من المقيمين هناك.

رفضت المجيء في البداية ولكنها في النهاية استسلمت كما كانت تستسلم في كل مرة نتعارك فيها ويعلو صوتي وأنا أخبرها (أنتِ السبب في كل شر) ولا أكتفي بذلك وأصيح (ستُبتلين بفتاة تعذبك كما تعذبينني!). لم أقصد ذلك.

لِمَ تمنيت لها ذلك؟ هي قطعة مني. كيف سأصعد وأنظر في وجهها اليائس! يفصل الدرج بيننا.. وتفصل بيننا الأيام.

يفصل بيننا اعتقادها بأنني لا أحبها وأحب ابنتها أكثر منها، ورغم أنها ستظن أني لم آتِ إليها (وأنَّ أَعَزَّ الوِلْد وِلْد الوِلْد) وبرغم ذلك سأبذل ما بوسعي أن أُظهر لها عكس ما تعتقده..

أسير بين الأروقة البيضاء وتتصارع الأسئلة..

كيف ستصلحين ما فعلتِه بكلمة أو بكلمتين؟ لقد رميتِ البذرة والآن تجنينها..

اجنِها في هدوء وتحملي نتيجة أخطائك!

جفاؤها ومعاملتها البيضاء التي تخلو من أي لون للحياة هي الفاصل بيننا...

شيء من بعيد

استيقظت وهذا الحلم يراودني، أمسكت بكوب الماء بجواري وأنا ألهث، أمسكته وأنا لا أنظر إليه، لم يتغير مكانه قط، أثره محفور على الطاولة كأنه يعلن دون كلمات «لن أتزحزح من مكاني...»، الهواء يدخل الغرفة على استحياء يداعب بدخوله الستائر التي تجعله يدخل الغرفة وأحيانًا تمنعه في تناغم واستعراض مبالغ فيه، وموسيقى الفالس تعزف في الخلفية... وأنا أراقبهم من بعيد «لِمَ لم يداعبني أحد هكذا؟». قررت أن أتخذ موقفًا وأقوم من مكاني لأوقف هذا العرض، وبكل ما أوتيت من قوة أمسكت الستائر وأزحتها جانبًا، أشعر بها الآن... فلو كان لها صوت لصم أذنيّ، أحرك رأسي وإذا به الضوء يلقي عليَّ أسهم في عينيّ فلا أستطع أن

أفتحها، أيعاقبني لأني أفسدت هذه العلاقة.. ابتعدت قليلًا عن الشباك وحدقت عيني ورمقته بنظرة «أنت لا تستطيع أن تتحداني فأنا أفسد كل العلاقات».. لم تكن هذه الأولى وربما لن تكون الأخيرة..

بعد أن أزحت الستائر التي كشفت بدورها عن قريتي التي نشأت بها، بعد انزعاج عينيّ من الضوء، تلاه انزعاجهما من منظر الفلاحين... فهنا الناس يستيقظون مع خروج الشمس وكأن أعينهم لم تذق النوم قط.

تنزعج أذناي من ثرثرتهم الصباحية، لديهم دائمًا مواضيع جاهزة ليتحدثوا عنها، ولديهم المادة الخام، وأعتقد أني كنت كثيرًا فحوى هذا الكلام...

يتحدث الناس دائمًا في الأشياء الأكثر استنكارًا، تلك التي يقوم بها أي شخص في الخفاء، ولكن عندما تظهر إلى النور تصبح فضيحة.. ويجد الجميع الفرصة للتحدث عنها..

بيتنا عمود هذه القرية، كلمة بيت قليلة عليه، ربما الأصح أن أقول قصرًا، ما أكثر غرفه وما أوسعها، الطرقات الطويلة الموحشة، يسكنه الظلام في بعض أجزائه، سكان البيت كثر ولكن لا أسمع

صوتًا، وبرغم أننا اعتدنا الاستيقاظ مبكرًا ككل القرية.. لكن يعم الصمت...

بيتنا الذي لم يعرف معنى الحب، ودائمًا ما تساءلت هل قلوبنا التي تحب أم عقولنا؟ هل نحب حقًّا أم نخدع أنفسنا؟!

لم أرَ قصة حب حقيقة في هذا المنزل لأتعلم منها، والدي والدتي وقوران يفعلان دائمًا الأصلح لنا من وجهة نظرهما.

لم أرَ في عمري أبي يداعب أمي أو يدللها، كانت علاقة رسمية كمدير ومساعدته، ربما هو الحب في نظرهما!

أما أنا... فهل أعرف معنى الحب؟

***

في يوم من أيام الصيف الماضي وبعد أن ضاق عليَّ البيت من شدة الحر ولم أستطع أن آخذ أنفاسي، وكان الجو بالخارج قد أصبح أكثر طراوة، أخذت مروحة اليد وركبت العربة، وبينما أمشي في شوارع القرية المنهكة... رأيته من بعيد...

نظرت إلى وجهه... لم أكترث في البداية ولكن عندما توقف

الحصان قليلًا وأمعنت النظر في وجهه... انتابتني رغبة بالفوز به وكأنه فستان أو حذاء جديد.. لم يجرؤ قط على النظر في وجهي... لأن أهل القرية اعتادوا ألا يسترقوا النظر ويروا من في العربة أو هذا ما أعتقده.

ترجلت من العربة وعزمت ألا أعود إلى المنزل إلا وأنا فائزة به...

اتبعته وآثار قدميّ تحضن ما تبقى من آثاره... اتبعت خطاه ولم يلتفت ليرى من ورائه... سرت بجانبه أحيانًا ورأيت عينيه تسيران وحدهما لجهة معينة لو نظر لغيرها لضل الطريق..

توقفت لأرى نهاية وجهته واتبعته مرة أخرى وأنا آخذ ما تبقى من عطره في الهواء.

ها هو يبطئ، ربما وصل؟ وقف تحت شجرة على ضفة الترعة... جاءت فتاة تمد يدها قبلها ومد يده هو الآخر لتحضن الأيادي بعضها.. وأنا أنظر إليهما من بعيد وكأن شوكة وقفت في حلقي... هل هذه الفتاة حصلت عليه قبلي؟ هل هي أجمل مني؟ لا! أغنى مني؟ بالطبع لا! ألا ينظر إلى ثوبها الذي يملأه الفقر!! عينيها الواسعتان؟ أتسحره أم ماذا؟

لم يعطِني فرصة حتى.. حتمًا لو دخلت معها في منافسة سأفوز

بالطبع، فهو لم ينظر لوجهي ولا لثوبي...

تحتم عليَّ أن أنهي هذه العلاقة لأفوز في المنافسة، لم أعرف معنى الهزيمة، سأحصل عليه، ليس اليوم، ربما غدًا أو بعده...

سأحررك من سحر هذا الفتاة... لا تقلق يا عزيزي، أنت لا تعرف مصلحتك، قَدَرُ من هم في وسامتك أن يكونوا مع أمثالي.

***

قمر ليلي وجهه، وشمس نهاري ابتسامته، كان واجبي العملي كل يوم مراقبته... من يسأل لا يتوه والقرية صغيرة وأناس يعرفون أناسًا يعرفونه، والدوائر تصب في المراد...

مرة يلقي عليَّ تحية احترام عابرة.. هذا يرضيني بعض الشيء ولكن أريد المزيد... لماذا لا ينظر إليَّ كما ينظر إليها؟

***

أدركت أني يجب أن أتخلص منها... نعم... ولكن كيف؟ ما أكثر الشائعات وكم هو جميل أن أشعل فتيل اللهب في أرض خضراء وتصبح رمادًا... فتاة جميلة كما يقولون... نعم فلقد سمعت عن

قصتهما من كل نساء القرية... يحبها يقولون ذلك.. ليحبها حتى الآن فحسب!... فكما أحبته ربما أحبت غيره... أو ربما ما هو أكثر من ذلك.. أقامت علاقة مع غيره؟ ربما من يدري...

انتابني شعور بنشوة الانتصار وكأنني وجودها..

يكفيني أن أبلغ ذلك إلى سيدة واحدة في القرية لتأكل نار الثرثرة الأخضر واليابس وستصل إليه بالتأكيد وسيتركها...

***

تحولت كلماتي إلى سحابة سوداء عمت المكان وأمطرت على كل بيت وانتقلت من لسان إلى لسان.. وسمعت أنها وصلت لبيت الفتاة وأنهم عزموا على مغادرة القرية... تعالت ضربات قلبي... ولكن فجأة هبطت من السموات العليا.. فلقد قرر هو الآخر ترك القرية والرحيل... ألن أحصل عليه؟ ألن أرى وجهه مرة أخرى؟

ما زاد من وجعي بعد رحيله أني لن أذوق نشوة الانتصار.

لا يهم... سأبحث عن جديد..

***

استيقظت وهذا الحلم يراودني، أمسكت بكوب الماء بجواري وأنا ألهث، أمسكته وأنا لا أنظر إليه، لم يتغير مكانه، والهواء يداعب الستار وما زال لا أحد يداعبني، سأعزم مرة أخرى على إفساد هذه العلاقة..

”

عدوهـا الأكـبر والأوحـد هـو الوداعـة...
كأنهـا كل الشـجاعة.
– يوسف إدريس

مأذون واتنين شهود

كلامها يربطني في مكان أحاول أن أنزع نفسي من شباكها،

تسمم أذني بكلامها.. فيسري السم في عروقي في محاولة لأكون جزءً منها.. لكني أقاوم.

أعلم أنها قد جمعت شتاتها المتبعثر قبل أن تأتي وتجلس أمامي أعلم أنها تحصن نفسها في كل مرة.. وتترأس قلعتها لترمي أسهمها في لحظة غدر فتصب عليَّ لعنتها..

تشكو وتجر الشكوى الأخرى تربط جسدها كما تربط جسدي، يحاوطها الرعب تريد أن تتركني في طريق مظلم وأنا مكبل.. هي تفعل قصارى جهدها لكي أفهمها وأنا فقدت ذلك منذ زمن.. أفهمها؟ لا..

ولكن هي لا تفهم، لو تفهم ستعرف أني أسيرها منذ الأزل.. وبرغم ذلك عينها تستغيث ترجو مني أن أفك أسري وأسرها.. وكل إيماءة تصرخ مع صرخاتي فتنتفض أجسامنا (نريد الحرية).

ثم يتضح لي أن حرية كلينا مختلفة.. حريتي معاهدة سلام معها.. حرية أن أمسك يدها على شاطئ البحر دون أن أخاف من عواصفها.. حرية.. في أمسية تحت القمر كوب شاي في (البلكونة) أغنية لعبدالحليم يغني ومع كل كلمة أشير لها أنها من قلبي.. دون أن تنتقد وتستخف بكل شيء أختاره وتصيح (ذوقك مختلف عني!)..

ولكن حريتها تتلخص في كلمة واحدة قالتها عدة مرات (طلقني). ولكن أشعر أنها لا تقصده وأكذب نفسي... خاصة أن الحياة تستمر بعدها مرات ومرات..

هل أنا متيم بها لهذه الدرجة.. لدرجة تجعلها تربطني؟

لِمَ تريد أن تنجو؟.. ولِمَ أنا لا؟... وفورًا أعاهد نفسي ألا أستسلم لها وأرحل.. أرحل إلى مكان بعيد، تتغير ملامحي حتى لا تتعرف عليَّ، في المنام أرى نفسي قد أنهيت حياتي معها وأنا ألمحها من بعيد تبكي على رحيلي وابتسامتي تتزايد لأني قد نجوت منها.. لكن في نهاية

الحلم أدرك أني لن أنجو منها في الحياة ولا في الأحلام والأقسى حتى بعد مماتنا..

أحيانًا تظل شاردة تحوم في عالمها وهي تنظر حولها في اللا شيء.. هل ستستعد لعاصفة جديدة، وعندما تغلق عينها أن كل شيء قد انتهى وأني نجوت وأتنفس الصعداء، ولكن تدخلت معها في عاصفتها حتى لا أخرج منها إلا وأنا متهم..

يبدأ حديثنا أنها تشتكي من شخص وأهز رأسي موافق على كل كلمة.. هل مخطئ حقًّا؟ هل أنا هذا الشخص؟ ثم أرفع صوتي (معك حق).

وما أكاد أن أغلق فمي حتى أراها وهي تصب عليَّ اللعنات.. أتساءل ماذا فعلت لها لأستحق هذا التأنيب...

في نهاية المطاف تستخدم دموعها في إخفاء ظلمها.. فحين تسقط أول دمعة منها تعلن أن الجميع مذنب في حقها وهي ذئب يوسف ألقيت عليها الجرائم وهي في غفلة عن ذلك.. في البداية ـ بداية حياتي معها ـ كنت أكترث لكل دمعة ولكل شكوى.. كلما ذرفت منها دمعة كان بخاطري أن أحفظها ولا تلمس الأرض.. كنت أريد أن ألتقطها وأحفظها في قلبي ولا تذهب هباءً.

ولكن الآن لا أدري أأصبح قلبي حجرًا أم اعتدت على رؤيتها تبكي؟

كنت أذهب إلى العمل مكبلًا بها وعندما كان يحدثني مديري كنت أرى خيالها وراءه.. هل يا ترى جاءت لتراني.. أم جاءت لتفجر مشكلة جديدة؟

وأستيقظ من خيالاتي على توبيخ المدير لي بسبب إهمالي.. لو يعلم نارها الموقدة في البيت... لو يعلم.. وكيف سيعلم من تكون وهي أمام الناس صماء بكماء.. وكيف سيصدق وهو من قال (هي كنز حافظ عليها).

كانت هوايتها المفضلة أن تستغل صمتي وتظهر كل عيوبي أمام أي أحد لتظهر كم هي مسكينة وأني بلاؤها..

كنت أعود من العمل أتألم من الجوع والتعب وطول الطريق أتخيل أن هذه المرة ستعلم خطأها وتمد مائدة لا أرى لها أول من آخر.. ولكن أعود ولا أرى إلا ظلامًا يعشش في البيت وأتذكر أزيزها وهي تخبرني أنها ستخرج اليوم..

ولم تقل كعادتها أين..

جلست أنتظرها.. كطفل تاه من أمه في سوق، وأسمع صدى صرخاتها ترن في البيت... كنت أدعو في كل لحظة أن تطرق الباب...

ليطرق الباب لأرى مأذونًا واثنين شهود...

تحت الأنقاض

سنجتمع ثلاثتنا اليوم في نفس غرفة لقائنا، أتذكر أول لقاء بيننا كنت متخبطة ولا أعرف كيف سأكمل حياتي ومن وراء دموع عيني رأيتهم لأول مرة.

لا أتذكر كيف ولا متى وأين! ولكن وجدت بهم شيئًا يشبهني ومن حينها كلما أشعر بالوحدة أستدعيهم، لا نجتمع إلا في هذه الغرفة المعتمة، لا أتذكر أيضًا من حدد المكان.

قبل مجيئهم استطعت أن افتح جزءً من الشباك ليدخل بعض من النور والهواء قبل أن تأتي (هي) وتعترض.. من هي؟ كل مرة أنسى أن أسألها عن اسمها لكن في يوم ما بالتأكيد سأفعل، ولكن حتى أعرف ولكي أفرقها في الحديث عن هي الأخرى...

يجب أن أسميها اسمًا يليق بـ(نكدها)، ربما سأظلم أي اسم معها، واسمًا قديمًا يليق بتصرفاتها وتفاصيلها (نازلي)، قديم على ما أعتقد ولا أعرف سيفي بالغرض أم لا..

وبرغم أني فتحت لها باب قلبي قبل أن أفتح باب الغرفة وأنا على يقين أنها ستجلدني.

عن أشياء فعلتها وأشياء لم أفعلها، وحتى إذا همس لي هامس وتركته في زوايا قلبي.

ستكشفه وتعرفه ولعلها تحاسبني عليه.

دخلت الغرفة هي (نازلي) من عاداتها أن تأتي مبكرة وترحل آخرنا.. بدأت تنفض الكرسي ليخرج منه عواصف الصحراء الغربية، وحينها نظرت إليَّ نظرة توبيخ، وكأنها تريد أن تقول (ما هذه القذارة؟).

لم أكن أعلم أن الكرسي يحتوي على كل هذا التراب، أكاد أجزم أنها جلبت في طريقها بعض الرمال وألقتها لتنظر إليَّ فقط هذه النظرة..

أتساءل أحيانًا لماذا أجتمع معها بعد توبيخها ذاك ولِمَ أسمح لها بذلك؟ ولكن صوتًا بداخلي يخبرني أنها دومًا على حق وأنها تريد

مصلحتي..

كانت تريد أن تتحدث ولكن استوقفتها هاربة منها لأعد أي مشروب أشربه.. أشربه أنا فقط! ولكيلا تقوى عليَّ بمفردها فيجب أن أنتظر الثانية التي لم أسألها عن اسمها، ليس تكاسلًا مني ولكني أراها أجمل من أن يحتويها اسم، فهي مجردة من كل الأسماء والألقاب مثلي تمامًا.

دخلت متأخرة يكسوها الحزن ويضعفها، ليس من عاداتها، كانت دائمًا تهل علينا بابتسامة تنير عتمة هذه الغرفة ولكنها اليوم دخلت تتكئ وكأن الأيام كانت كفيلة بأن تجعلها حطامًا.

شعرت بلمستها على كتفي، كنت أظن أنها تستند عليَّ أنا أيضًا ولكنها كانت تقصد أن تطمئنني، أشعر أن لمستها سرت في كل جسدي حتى وصلت لقلبي، لم تكن بلمسة غريبة عليَّ برغم أني لا أعرفها إلا منذ زمن قريب..

اجتمعنا كالعادة لم أتجرأ على الكلام في حضرة نازلي، فهي ستأخذ أي كلمة مني وتبدأ بالانتقاد. والغريب أنها تلقي كل اللوم عليَّ أنا فقط وتترك الأخرى. استفتحت كلامها بـ (ما هذه الثياب الرثة التي عليك؟ وجهك شاحب.. جسدك غير متناسق...).

وبعد أن تحطم ما تبقى من شكلي تواجه عقليتي واختياراتي التي قضيت سنوات وسنوات وأنا أرعاها على يقين أن هذا ما تبقى مني، فلقد كنت أعلم من امثالها أني لست بهذا القدر من الحسن والأناقة، وكنت أطمئن نفسي أن مهاراتي هي ما تبقى لي.

قاطعت أفكاري (بالمناسبة عملك الجديد هذا هل له فائدة؟!). لوت شفتها بابتسامة صفراء وأتبعت (لن تنجحي فيه كالعادة.. فمنذ طفولتك وأنت لم تنجحي في أي عمل)، مهلًا! كيف تعرف شيئًا عن طفولتي وأنا لم أتعرف عليها سوى من بعض شهور... يا ترى هل قابلت أمي أو أي أحد يعرفني..

استطعت أن أسكتها لأرى الأخرى التي تخبئ الدموع بقدر المستطاع، وقبل أن أسألها عن حالها كما تفعل الصديقات.. أوقفتني ويدها على قلبها لتصل لمستها مرة أخرى لقلبي (دعك منها، مشكلتك ليس في مظهرك ولا في فكرك.. كل هذه أشياء تُعَوَّض لو كان كلام نازلي حقيقيًّا)، كيف عرفت أني أسميتها نازلي؟! وقاطعت سؤالي (لا عليك، مظهرك ليس سيئًا، هناك من هم أبشع منك ويتفاخرون بجمالهم). كلامها طمأنني كما تفعل نظراتها ولمساتها، وفورًا وجهت جزءً من عيني إلى نازلي لأرميها بنظرة كلها

شرر لو كان حقيقيًّا مشتعلًا لأحرقها..

ولم أبالغ إذا قلت إني لمحت منها بعض الدخان المتناثر فوق رأسها.

أكملت المسكينة (ولكن أنا أرى أن مشكلتك تكمن في من هم رحلوا.. هم كثر، لم يرحلوا بسببك ولكن رحلوا لأن هذا طبع الحياة.. الحياة التي لا نستطيع أن نعيش فيها، نحن أرق من ذلك أضعف من ذلك.. يجب أن نغادر هذه الحياة...). وأمسكت بيدي واتجهت إلى الشباك، كان كلامها سحرًا يأخذني إلى عالم آخر، كل لقاء عندما كانت تتحدث كان يوقفها شيء، ولكنها هذه المرة جاءت وعزمت ألا تصمت أبدًا، لمَ أرى أنها أقوى تأثيرًا من نازلي؟! ربما لأنها تشبهني أكثر، حزنها يلمسني أكثر.

خوفي من انتقاد نازلي لي جعلني أنظر إليها نظرة أخيرة أودعها.. كنت أعتقد أني سأرى لومها يخرج من فمها كأفاعي تقيدني.. ولكني وجدت العكس وكأن أفاعيها وكلامها ربطها هي.. أراها تنظر إليَّ مشفقة تريد أن توقفني ولكنها لا تقدر.. هل ذهبت كل قوتها! عينها مليئة بكلام ولكنها تفضل أن تغلقها وتترك الأخرى تتابع ما تفعله.. ألتفت مرة أخرى لـ «هي» الأكثر جمالًا لتمسك بيدي، لمسة أم دافئة وتهمس في أذني بحنين (افتحي الشباك).

ثم أتبعت (لا تغرك هذه الأشجار الخضراء والسماء الصافية أعلم أنهم مواساتك في أضعف أيامك، ولكن حتمًا في يوم ستسقط الأوراق تغيم السحب ولن تجدي تسلية فيهم بعد ذلك)، مسحت الدموع وأكملت (سأمسك بيدك ولن أتركك هذه المرة و...).

وتعالت صيحات الاثنين (لن نترك هذه المرة).

وفجأة قطع صوتهما صرخات أمي من أسفل وهي تنادي بكل عزمها (هيا! الطعام جاهز).

ارتبكتا وقالتا في عُجالة (سنرحل!).

”

لا شيء يقتل الأحياء مرتين إلا الخوف.

– أنيس منصور

بيت الشبل

العالم أكبر مما كنت أتوقع.. لم أخف قط من زحام بيتنا الذي كان يشهد كثيرًا من الناس، ولكن هنا زحامًا أكثر.

آخر مرة رأيت فيها أمي كانت من عشر دقائق... من خمس دقائق... من ساعة... لا أدري، فقط أعلم اختفاءهم برحيل ومجيء أناس.. هم من رحلوا أم أنا من رحلت عنهم؟

أخاف كلما اقترب مني أحدهم.. بعضهم يريد أن يسأل (هل أنت تائه؟). وبعضهم يريد أن يضعني تحت مظلته في هذا البرد القارس وأنا أهرب منه.. وأخرى تشفق عليَّ لتجفف ملابسي وأنا أنزع يدها وأرحل كمن يعرف مصلحته..

العالم واسع لا أدري أين نحن ولا أين سأذهب.. كان أبي يردد على مسامعي دومًا مكان بيتنا ورقمه لأحفظه، ولكن لا أتذكره، وكلما أتذكر رقمًا أو اثنين كان يطغى عليه صوت بائع المثلجات ليطير الرقم فورًا،

شاهدت لافتة أخذت أتهجى كل حرف لأعرف أن هنا (بيت الأسد)، ربما يختبئون هناك من المطر.

أريد أن أدخل وأبحث عنهم هناك.. ولكن أخاف من وجه أبي الغاضب، سيثور عليَّ ويوبخني ويصدمني بجمل لا أعرف ردَّها وحتما سيقول (لماذا تركت يدي؟ أين ذهبت؟) وأنا لم أرحل ولم أذهب..

أريد أن أبحث عنهم ولكن أخاف أن أرى بكاء أمي فأضعف وأشعر بذنبي فتتحقق رؤية أبي وأني أنا من تركتهم..

لن أعود.. تُرى كيف سيكون مستقبلي؟ هل سأصبح من متسولي الشوارع؟

لا مهما حدث لن يتخلوا عني.. بالتأكيد يبحثون عني في كل مكان ويعطون أوصافي للمارة.. ولمَ أنتظرهم؟ لمَ لا أقوم أنا بذلك؟

كيف؟ وأنت من يخطئ في كل مرة! أنت من تُلام دائمًا على كل تصرف تقصده أو لا تقصده..

سأكون حريصًا هذه المرة.

لن أقوم بشيء لكيلا أخطئ.

لن أفعل... لن أتحرك من مكاني ويظن العالم أني تمثالًا..

وتظل قطرات المطر تنزل قطرة تلو الأخرى حتى تسكن الطيور بين ذراعيّ.. ولن أشعر بلسعات البرد ولن أسمح لها بذلك ولن يهتم أحد بحالتي..

أشعر أن أحدًا يقترب مني.. لن أنظر إليه.. كلما يقترب تقترب معه رائحة تشبه بيتنا..

ثم تربت يد على كتفي.. يد تشبه بطانيتي..

ترافقها ابتسامة أنستني ما حدث..

أوراق رسمية

نعيش الحياة وكل المنح والعطايا في جيوبنا، يتملكنا الاطمئنان ونعتقد أن كل زمام الأمور في أيدينا، ويتخلل الطمع الأحشاء، نضمن كل شيء..

اعتدنا إذا تخرجت ستجد وظيفة، لِمَ لا؟ لست أقل من أحد،

وإذا بحثت عن شريك حياتك ستجده أو ستجد من يساعدك على ذلك، ستُرزَق بطفل، لِمَ لا؟ فللجميع أطفال حولهم، لم يحدث عكس ذلك، رزقت بولد يشبهك تربيه وترى أبناءه فهذه سنة الحياة...

تظن حدوث ذلك، لِمَ لا؟ وإن لم يحدث فستكون نهاية سيئة لقصتي...

***

يطرق الباب بنغمات اعتادت عليها أذني لأعوام، وبعدها بلحظات سيدخل مساعدي على وجهه ابتسامة مطبوعة لا تتغير حتى لو انقلب العالم.

تعجبت عندما دخل الآن بابتسامة أخرى أكثر حياة ويقول بابتهاج (البشرى، من المتفوقين كالعادة، طبعًا من شابه أباه.. ستركع كليات القمة تحت قدمه.. عندما وصلني الخبر هرعت إليك، أعرف أنك كم تمنيت أن تراه يحقق ما يتمناه). قالها ولم أمنع فرحتي أن تعتلي شفتيّ فهذا حلم كل أب أن يرى تفوق ابنه، ولكن هل أنا حقًّا أب؟! قاطع خيالي (سأتركك لتحتفل).

قالها ثم أغلق الباب وكلامه صدى في الغرفة، ورَنَّت آخر كلمة في أذني؛ أحتفل! أحتفل بماذا ومع من!؟ هذا اليوم الذي كنت أخشاه، منذ أن دخل المدرسة، سيذهب لمكان آخر بعيدًا عن نفوذي...

***

الأيام تمر والحزن يكبر، تذكرت اليوم الذي ترقيت فيه وأصبحت مسئولًا في الإدراة التعليمية منصب أعطاني الكثير من الصلاحيات. في البداية افتقدت كوني مدرسًا، كان التدريس يشبع دور الأب

لدي بعد أن فقدته في الحقيقة وسُلِب مني رغمًا عني.. لم أتخلَّ عن شخص أو شيء، وكنت معروفًا بين الناس بتحمل المسئولية، وكان اسمي مرتبطًا بينهم بالعطاء، ولكن من هم مني وصموني بعكس ذلك..

تذكرت الأيام التي كنت أذهب وتتورم قدماي من الوقفة عند باب الحاج يوسف، أرجو منه الدخول، غير أنه يقف ليسد جسده العريض الباب، لو مرت ذبابة لسحقها بجسده ولن تدخل أيضًا.. كان يمنع دخولي قائلًا (هذا هو عرفنا، أنت وقعت على ورقة طلاق المسكينة وهي لا ترغب في لقائك ولا تواجدك في المنزل بأي صفة، ما باليد حيلة، هذا قدرك وقدرها، ربنا يقدرنا على تربيته ولا يحوجنا لك). ويغلق الباب وأنا على وشك أن أقول (ولكنه ابني ولم أفعل شيئًا، هذا شرع الله وكل شيء نصيـ...). وتقف الكلمة في حلقي.. أبلعها وأرحل.

فذلك الرجل قتلني حيًّا ليظفر بجملة (الخال والد)، كان من الممكن أن أدخل إلى البيت رغمًا عنهم، أو بحكم محكمة، ولكن أردت أن ينعم ابني بحياة هادئة وسأبقى أنا على الهامش...

لم أملك سوى أن استغل منصبي وأنتظر دخوله المدرسة وأبحث

عن اسمه في كل مدارس المنطقة لأعرف أحواله ولا يحوجني الله لأمثال الحج يوسف.

***

أتذكر أول يوم طرق مساعدي الباب وهو يمسك بالأوراق، يخاف أن يراه أحدًا، وعيناه تسبقه قبل قدمه، ولسان حاله يقول إنك تبحث عمن هو يحمل نفس اسمك ولقبك؟! ويزيد ارتباكًا عندما يلمح في الورق جملة (أبي متوفى)، يسقط الورق من يده كجبل ينهار ولكن بهدوء زائف لملم الورق.. كان يريد أن يشق عينيه بعد أن سمحت له بالاطلاع على ما لا يعنيه.. كنت أراه ينظر إليَّ بوجه شاحب ربما كان يظنني شبحًا!!

***

استفقت من دوامة الذكريات على صوت الهاتف (شخص ما ينتظرك في الخارج).

أذنت له بالدخول، كان شابًّا يافعًا أرى فيه ملامحي تتجسد مرة أخرى تتصارع الاسئلة في رأسي، أُكَذِّب عينيّ فتتوه الملامح وتتبعثر ثم أُمعن النظر فأجده يشبهني.. هل عدت بالزمن وأرى

وجهي في المرآة.. يقترب مني ليزداد توتري، لا يهم سيتضح من هو، ربما هو أحد أقاربي التي فرقت الدنيا بيننا، ثم أرحب به قائلًا (تفضل، ماذا تريد؟).

قال بصوت منهك يحمل نبرة عتاب: (أخبرني خالي بأنك ستساعدني فيما أرغب فيه، لذا جئت إليك رغمًا عني، لم أود ذلك ولكن هذه مستندات رسمية..).

سيطر عليَّ اندهاش من أسلوبه، فعندما يكون الشخص بحاجة لمساعدة يطلبها بتودد أكثر، وهذا ليس حاله، فهو كالذي يريد عراكًا ولكن يحافظ على انفعاله ويبدو أنه قد تدرب كثيرًا أن يقول هذه الكلمات دفعة واحدة دون أن يلتقط نفسًا.

مصمص شفتيه وكأني أنكر معرفته وأجاب: (خالي الذي رباني). ثم تنهد وأكمل: (بعد أن تخلى عني أحدهم...) وخرجت آخر جملة كطلقة: (خالي الحج يوسف).

”

أنـا حيـاة.. غـير مكتملـة.. لـن أنضـج..
إلا بعـد فـوات الأوان.

– حبيبة

وَهن

يهطل المطر يبلل ثوبي الفضفاض.. ذلك الذي لا أرتديه تحشمًا بل رغمًا عني.. يخفي كثيرًا من التفاصيل تتباهى بها بعض النساء في تلك الفترة ولكن أنا.. لا أدري.. لم يعجبني التباهي به.. بل كنت أجد نفسي حينها مسخًا..

اندفاعي من ساقني إلى هذه اللحظة.. خسرت وسأخسر الكثير بسببه.. لماذا أخسر دائمًا؟ لماذا أقطف الثمار قبل أن تنضج؟ وكما يقولون (لا طُلت بلح الشام ولا عنب اليمن).

***

اليوم أصبح أطول بكثير مما أعتقد فعندما توصل الليل بالنهار و يتخلل ظلام الليل نهارك.. تدخل في هذه الدوامة.. متى سينتهي ذلك؟

روحك تعشق الظلمة شيئًا فشيئًا تستأنس بها..

***

بداخلي متسلل يلتهم ما تبقى مني.. أحمله على مضض.. منذ اليوم الأول هو مجبر على وجوده بالداخل.. وأنا مجبرة على حمله.. ننتظر النجاة.. لم أختَره ولم يخترني..

***

لم أتناول شيئًا يمكن أن يقال عليه طعامًا منذ أيام.. لقمة من هنا ولقمة من هناك.. لا تشبعه وبالطبع لا تشبعني، ثم يبدأ هو في شق طريقه ليمتص من دمي ليروي عطشه.. ويأكل من كبدي ليغذي نفسه..

منذ أن سكن بداخلي كانت لديه القدرة الهائلة على التلاعب بأعصابي وأفكاري..

وكل من حولي يرددون كلمة واحدة:

(الهرمونات) الشماعة التي يُعَلَّق عليها أي تصرف غير مقبول..

***

تحت المطر تتلون الحياة بالأسود.. اقترب موعد خروجه.. أعرف أنه يأبى الرحيل من جسدي.. ولكنه اكتمل مع اكتمال القمر.. إن لم أخرجه سيخرج بطريقته وربما حينها يهتك رحمي.. حددت الموعد والأمر سيتم.. وربما لن يتم.. ربما يقتلني هو!

ويخرج الطبيب ليقول لهم (لقد خسرناها وأنقذناه)، يفعلها فهو ثمرتي.. مندفع مثلي تمامًا..

لا أدري كيف تمر اللحظات.. كل ذكرياتي السيئة خلقت في المشفى.. واليوم سأخلق ذكرى جديدة.. قد يعتقد البعض أنها سعيدة..

أدخل المستشفى.. تُلقي بي الممرضة على السرير.. تكشف الثوب.. لترى بيت المتسلل.. ثم تشهق (كل دي بطن!) ثم تصمت فجأة، أعتقد انها أدركت فعلتها وأنها أحرجتني.. كانت تُلقي علي تعليماتها الخاصة ليست بأمر من الطبيب.. تعليمات بخلفية خالتي

التي تستمد معلوماتها من المسلسلات.. والأصح أن أقول أوامر مغلفة بستار النصائح.. ثم تتنهد وتقول (والله انتي زي بنتي وأنا خايفة عليكي.. شدي حيلك واصبري شوية لسه وقتك مجاش.. أنا بقولك عشان الدكتور مش هيخاف عليكي زيي). لم أفهمها.. لم أستطع.. لم أقدر على الصبر والانتظار لو تعلم ما أشعر به الآن.. لو شعرت بحركاته وانتفاضاته وهو يقطع كل شريان لما فتحت فمها..

تجاهلت ما قالته.. وأكملت مساعدتها لي في ارتداء ثوب أزرق يكشف عن كل شبر من جسدي الذي خبأته لشهور.. ظهر كل عيب فيَّ بوضوح.. آثار تعذيب هذا الوحش أو كما يسميها البعض (Stretch Marks-علامات التمدد).

لم يكتفِ بوجوده بداخلي فقط بل ترك علامة لبعد رحيله..

أخذت أغطي نفسي بأي لحاف كي لا ترمقني أعين الممرضات وتبدأ واحدة أخرى بإلقاء خبراتها..

لدى الأطباء قدرة رهيبة على طول البال.. ربما لو كنت مثلهم وتخليت عن اندفاعي لكنت طبيبة مثلًا.. ولكن اندفاعي ألقى بي في أول كلية أمامي لأحصل على أي شهادة والسلام.. لأتزوج أول

شخص مناسب.. ثم أتسرع مرة أخرى.. سلسلة من الحماقات تقذفني إلى هنا..

تأخر الطبيب.. وأنا أرقد.. ربما يكون نائمًا وأنا مستيقظة منذ أيام..

لن أذوق النوم مرة أخرى؛ أسمعهم يقولون ذلك.. لا يهم.. المهم أن أعود كالسابق فعند خروج ذلك الشيء مني ستزهر الحياة لي مرة أخرى..

دخل الطبيب لتنتهي معه الأحلام وأعود إلى ما أنا عليه وأستفيق على صرخاته إلى الممرضات (أسرعوا)..

كان في بالي أن أسأل الطبيب هل سأعود كما كنت.. لكن أعتقد أن الوقت غير مناسب..

في ومضة أصبحت في غرفة العلميات.. يغطي العرق وجوههم وتثلج جبهتي.. البرد يهتك ما تبقى من عظامي..

هل من خوف لقائه؟ مع كل دقة عقرب كان الألم يشتد.. اشتد.. اشتد.. وفي لحظة استوقفني يسأل ماذا؛

هل سأعطيه لمن يريده؟ أم سأبقيه معي؟ وجع صرخات تخرج من فمي دون أن أشعر.. لا تهمني..

أخاف فقط منه، من صرخاته هو، في أي لحظة ممكن أن يخرج من كهفه،

صرخة أخيرة مني..

تلتها صرخة صغيرة رقيقة،

تلين قلبي..

مع هتافات من حمد الله على السلامة...